أحاديث إصلاح القلوب

(٤٧)

الصبر

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ». رواه مسلم

وعَنْ أَبِى مَالِكٍ الأَشْعَرِىِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا ». رواه مسلم

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ « مَا

يَكُنْ عِنْدِى مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ وَمَا أُعْطِىَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ ». متفق عليه

إن الصبر بأنواعه يعد من مقامات الدين العظيمة ومنازله العلية ورُتبِه الرفيعة ، وهو ساق الدِّين الذي عليه يقوم ، كما قال علي رضي الله عنه وأرضاه : " الصبر من الإيمان بمنزلة الجسد من الرأس ، ولا إيمان لمن لا صبر له " .

ولهذا تكاثرت النصوص والدلائل وتضافرت الحجج والبراهين في كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مبينةً مكانة الصبر العظيمة ومنزلتَه الرفيعةَ وما يترتب عليه من الآثار الكريمة والمنافعِ العميمةِ في الدنيا والآخرة حتى قال الإمام أحمد رحمه الله : " لقد ذُكرَ الصبر في القرآن أكثر من تسعين مرة " .

ولقد تنوعت هدايات القران في الترغيب بالصبر وبيان مكانته العظيمة ومنزلته الرفيعة في دين الله جل وعلا ، فجاء في بعضها الأمرُ به والتحذير من ضده ، وفي بعضها بيان آثاره الحميدة وثماره المباركة على الصابرين في الدنيا والآخرة ، بل أخبر جل وعلا أنه يحب الصابرين قال تعالى: ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦] ، وأنه معهم كما قال جل وعلا ﴿ إِنَّ

اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦] ، وأخبر بأن لهم البِشارة العظمى والنوال الكريم في الدنيا والآخرة ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] ، وأخبر جلّ وعلا أن الفلاح في الدنيا والآخرة يناله الصابرون ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] ، وأخبر جل وعلا أن الصبر خيرٌ لأهله كما قال سبحانه ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦] إلى غير ذلك من النصوص العظيمة والدلائل الكريمة المبينة لمكانة الصبر العلية ومنزلته الرفيعة .

والصبر خير العطاء وأوسع النوال كما تقدم في الحديث: ((مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ))، وهو ضياء لصاحبه ونور له في حياته يستبين به السبيلَ ويتحمل به المشاق وتهون عليه به الصعاب وتنبسط له الحياة ويُسَّرُّ فيها غاية السرور كما تقدم في الحديث: ((وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ)) ؛ ولا يزال صاحبه مستضيئا مهتديا مستمرا على الحق ثابتا على الصراط.

والدنيا دارُ امتحان ومَيْدانُ ابتلاء ، وما من عبد في هذه الحياة إلا وهو مبتلى ثم المرجع إلى الله ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١] ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

والابتلاء في هذه الحياةِ الدنيا تارة يكون بالنعمة والرخاء ، وتارة يكون بالشدة والبلاء ، تارة يكون بالصحة وتارة يكون بالمرض ، تارة يكون بالغنى وتارة يكون بالفقر ، والمؤمن عرضة للبلاء في هذين البابين : باب الشدة وباب الرخاء، إلا أنه من خيرٍ إلى خير في كل ابتلاءاته ، كما في الحديث: ((عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ !! لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ)) ، وأما من لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيرا له.

وتأمل هذا التعميم ((شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ)) ؛ فقوله :((شَيْئًا)) يتناول كل ابتلاء سواء كان شدة أو كان رخاء ، فالمؤمن في كل ابتلاءاته من خير إلى خير ؛ وذلك أن المؤمن الموفق إذا ابتلاه الله جل وعلا بالشدة والعسر ، والمرض والفقر ونحو ذلك تلقاه بالصبر ؛ فيفوز بثواب الصابرين ، وإذا ابتلاه الله جل وعلا بالرخاء واليسر ، والصحة والعافية ، والغنى والسعة ؛ تلقاه بالشكر فيفوز بثواب الشاكرين ، فهو يتقلب في هذه الابتلاءات بين صبر وشكر ، وقد قال الله تعالى في أربعة مواضع من القرآن الكريم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ؛ فذكر سبحانه هذين المقامين العظيمين مقام الصبر على البلاء ، ومقام الشكر على النعماء، في سياق حسن الانتفاع بآياته، فأخبر أنه إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

إن حاجة المسلم إلى الصبر وضرورتَه إليه ملِحَّة في كل شأن من شؤونه وكل عمل من أعماله ؛ فلا استطاعة للعبد على القيام بأي عمل من الأعمال أو طاعةٍ من الطاعات إلا بخصلة الصبر العظيمة ، ولا استطاعة للعبد على الانكفاف عن المحرمات والإحجام عن المنهيات والبعد عن الأمور التي تسخط الله إلا بهذه الخصلة العظيمة ، ولا قدرة على العبد على تحمّل الآلام والصعاب والمصائب إلا بهذه الخصلة العظيمة ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله : الصبر ثلاثة أنواع ؛ صبرٌ على طاعة الله ، وصبرٌ عن معصية الله ، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة.

فمن لا صبر له كيف يحافظ على الصلاة ! وكيف يواظب على الصيام ! وكيف يؤدي الطاعات على التمام والكمال !! ومن لا صبر له كيف يبتعد عن المحرمات ويجتنب الآثام !! ومن لا صبر له كيف يتحمل مصائب الدنيا !! ولهذا كانت الحاجة للصبر شديدة والضرورة إليه ملحّة.

إن الصبر خُلق عظيم وخلة جليلة وقوة نفسية يترتب على وجودها في العبد فعل ما يجمُل والبعد عما لا يجمل ولا يحسُن، يستطيع العبد بها بإذن الله أن يحبس نفسه عندما يصاب بالآلام والمصائب عما يسخط الله من قول الحرام أو فعل الحرام كما قال بعض العلماء " الصبر : حبس النفس عن

الجزع ، واللسان عن التسخط ، واليد عن لطم الخدود وشق الجيوب "، وبه يستطيع أن يلزم نفسه بطاعة الله والمحافظة على الفرائض والواجبات والعناية بالرغائب والمستحبات ، وبه يستطيع أن يكف نفسه عن معاصي الله والبعد عن الحرام واجتناب الآثام وتوقي ما يُسخط الله تبارك وتعالى. فالصبر "هو حبس النفس عن محارم الله وحبسها على فرائضه وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره".

قال ابن القيم رحمه الله: "الصبر نصف الإيمان"، فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر، كما قال بعض السلف: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، قال تعالى: {إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور}[إبراهيم: ٥].

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو ثلاثة أنواع: صبر على فرائض الله، فلا يضيعها، وصبر عن محارمه، فلا يرتكبها، وصبر على أقضيته وأقداره، فلا يتسخطها، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث، استكمل الصبر. ولذة الدنيا والآخرة ونعيمهما، والفوز والظفر فيهما، لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: خير عيش أدركناه بالصبر.

وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب في العالم، رأيتها كلها منوطة بالصبر، وإذا تأملت النقصان الذى يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته،

رأيته كله من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار، كله صبر ساعة...

وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ من عدم الصبر، فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، فهو الفاروق الأكبر، والترياق الأعظم، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله، فإن الله مع الصابرين ومحبته لهم، فإن الله يحب الصابرين، ونصره لأهله، فإن النصر مع الصبر، وإنه خير لأهله، {ولئن صبرتم لهو خير للصابرين}[النحل: ١٢٦]، وإنه سبب الفلاح: {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}[آل عمران: ٢٠٠]".

وقد روى أبو يعلى في مسنده وابنُ أبي شيبة في مصنَّفه عن جابر بن عبد الله -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنّ النَّبيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سُئِل: أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «الصَّبر والسَّماحة».

وإنما كان الصَّبر والسَّماحة بهذه المنزلة العليَّة من الإيمان وبهذه المكانة الرَّفيعة من الدِّين لأنَّهما خُلُقَان في النَّفس يَحتاج إليهما العبد في مقامَات الدِّين كلِّها وفي جميع مصالحه وأعماله، فلَا غنى له في شيءٍ من ذلك عن الصَّبر والسَّماحة، للحاجة الشديدة إلى هذين الخُلُقين الفَاضلين في جميع مقامَات الدِّين.

ولهذا قال ابنُ القيِّم -رحمه الله - مُبيِّنًا مكانة هذا الحديث العظيمة ومبيِّنًا مدلوله ومعناه -: ((وهذا من أجمع الكَلام وأعظمه بُرهانًا وأوعبه لمقامات الإيمان من أوّلها إلى آخرها؛ فإنَّ النَّفس يُراد منها شيئان:

بذْلُ ما أُمِرت به وإعطاؤه، فالحامل عليه السَّماحة.

وترك ما نُهيت عنه والبُعد منه فالحامل عليه الصَّبر)).

وقد سُئل الحسن البصري -رحمه الله - وهو أحد روَّاة هذا الحديث قيل له: ما الصَّبر وما السَّماحة؟ فقال: ((الصبر عن معصية الله، والسماحة بأداء فرائض الله عز وجل)) رواه أبو نعيم في الحلية.

ومن يتأمل في هذا الحديث العظيم وفي دلالته العَظيمة يجد أنَّه حديثٌ جامع للدِّين كلِّه؛ لأنَّ المؤمن مأمور بأفعال وطَاعات وعبادات متنوِّعات، وهذه كلُّها تحتاج إلى سماحة نفس.

والسَّماحة في أصل معناها تدل على السُّهولة واليُسر والسَّلاسة، فمن كانت نفسه سلسلةً سهلةً سمحةً انقاد للأوامر وامتثل الطَّاعات ولم يتلكَّأ ولم يمتنع، والصبر حبس النفس ومنعها والعبد مأمور بالانكفاف عن المعاصي والبُعْد عن المناهي وتجنُّب المحرَّمات، وهذا يَحتاج إلى صبر، وإذا كان لا صبر عنده فإنَّ نفسه تتفلت فلا يتمكَّن من منعها عمَّا نهاه اللهُ عنه.

وبهذا يُعلم أنَّ من لا صبر عنده لا يستطيع أن يقاوم، ومن لا سماحة لديه

لا يستطيع أن يقوم؛ من لا صبر عنده لا يستطيع أن يقاوم النَّفس عن رعونتها عند حلول البلاء، ولا يستطيع أن يقاوم النَّفس من انفلاتها عند دواعي الشَّهوات والأهواء، ومن لا سماحة لديه لا يستطيع أن يقوم بالعبادات والطاعات؛ لأنّ نفسه غير السمحة لا تنهض للقيام بالأوامر والاستجابة لداعي الطَّاعات، فإذا دُعيت نفسه إلى طاعة شحَّت، وإذا أُمرت بفضيلة تأبَّت، وبهذا يكون من المحرُومين.

فإذا أكرم الله –سبحانه – عبده فكان صبورًا سمحًا؛ هدي إلى كل خير وأعين على كل بر وفضيلة ، ووقي من كل بلاء وشر، فما أحوج النفوس إلى الصّبر والسّماحة لتنهض قيامًا بطاعة الله جلَّ وعلا، ولتمتنع عمَّا نُهيت عنه من المحرمات والآثام، والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له، فنسأله سبحانه أن يمنَّ علينا بالصّبر والسّماحة وبكل خلق جميل، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.